من التحديات المعاصرة
جدلية العولمة والواقع

الأستاذ المساعد الدكتور
باسم باقر جريو
جامعة الكوفة ـ كلية التربية

من التحديات المعاصرة جدلية العولمة والواقع

الأستاذ المساعد الدكتور
باسم باقر جريو
جامعة الكوفة ـ كلية التربية

توطئة :ـ

يشهد عالمنا المعاصر اليوم تحديات خطيرة ومتغيرات كبيرة تتمثل بثقافة العولمة التي تضرب المجتمعات الشرقية وخصوصا الإسلامية، ومما لا شك فيه أن لهذه الظاهرة آثارا كبيرة قد تؤدي إلى تغيير معالم تلك المجتمعات على الأصعدة كافة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فضلا عن التغييرات الدينية التي باتت تتأثر بفعل تلك الموجات المكثفة تحت غطاء تصدير ثقافة الغرب .

ونظرا للمتغيرات والأحداث المتسارعة الذي يشهدها عالمنا اليوم حاول ساسة الغرب وخصوصا (الولايات المتحدة) وتحت مظلة التغيير والانفتاح من اجتياح بلدان الشرق وإسقاط الحواجز والهويات والثقافات وصهر الجميع في البوتقة الأمريكية .

كما أن العولمة هي ظاهرة أفرزتها الثورة المعلوماتية التي ظهرت في أواخر الثمانينات من القرن العشرين في ظل النظام العالمي الجديد ، الذي أتاح للولايات المتحدة ودول الغرب السيطرة الكاملة والهيمنة على العالم في ظل نظام رأسمالي ولكافة المجالات السياسية والاقتصادية والتقنية والعسكرية . وقد اهتم المفكرون الإسلاميون بهذه الظاهرة وما يترتب عليها من تداعيات ونتائج تؤثر على الناس في شتى مناحي الحياة ، وبصفة خاصة على هويتهم الثقافية ، وثقافتهم القومية ، وذاتيتهم الوطنية ، ومعتقداتهم الدينية خصوصا في ظل المتغيرات الجديدة التي تشهدها الساحة العربية وخصوصا الإسلامية

الناتجة من غياب التشريعات الجديدة التي تضمن للشعوب العربية الحياة الآمنة والمستقرة ، أضف إلى ذلك غياب الوعي العام الإسلامي لما يجري في الساحة الإسلامية سياسيا وفكرياً واقتصاديا مما أفقدها حصانتها وجعلها عرضة لغزو العالم المتقدم واكتساح ساحة الشرق . مما ينذر باستعمار معاصر له آلياته الجديدة في الهيمنة السياسية والثقافية وهو نتيجة طبيعية نظرا للانهيارات الواسعة وعلى مختلف الصعد .

وفي ضوء ما تقدم تكون العولمة دمج لثقافات العالم ، واقتصادياته وجعل الدول المجاورة تابعة للقوى المسيطرة إذ يقوم " أسلوب التبعية على تحليل الإطار التاريخي للمجتمعات النامية حيث أن علاقة التبعية يمكن فهمها فقط في إطار مواقف محددة " [1] ، والصيغة الصرفية للفظة " عولمة " هي " فوعلة " ، وقد فرضتها على اللغة العربية حاجة العصر وما طرأ عليه من مستجدات . وهي تدل على تحويل الشيء إلى وضعية أخرى مثل " قولبة " من " قولب " أي وضع الشيء في صيغة قالب ... الخ . ومن ثم ، يكون معنى " العولمة " هو وضع الشيء على مستوى العالم ، فعندما نقول مثلا عولمة النظام الاقتصادي، أو عولمة السياسة ، أو عولمة الثقافة ، فإننا نعني تحول كل منها من الإطار القومي ليندمج ويتكامل مع النظم الأخرى المثيلة لها في العالم . لقد ظهر مصطلح العولمة أول ما ظهر في مجال المال والتجارة والاقتصاد ، غير أنه لم يعد مصطلحا اقتصاديا محضا ، فالعولمة الآن يجري الحديث عنها بوصفها نظاما أو نسقا ذا أبعاد تتجاوز دائرة الاقتصاد . إنها الآن نظام عالمي ، أو يراد لها أن تكون كذلك ، يشمل مجال المال والتسويق والمبادلات والاتصال ... الخ ، كما يشمل أيضا مجال السياسة والفكر والأيديولوجية . والعولمة هي فرض نمط أو نموذج معين على البشر جميعا ، بما يعنيه ذلك من القضاء على الخصوصية ، والمنافسة ، والتنوع ، والاختلاف الذي هو قانون الله تعالى النهائي غير قابل

للتعديل أو التغيير .

ومصطلح " العولمة " هو ترجمة لكلمة Globalization الإنكليزية التي ظهرت أول الأمر في الولايات المتحدة الأمريكية ، أما الاقتصاد المعولم فيمكن لنا تعريفه على أنه " هو اقتصاد قادر على العمل كوحدة وعلى صعيد الكرة الأرضية " [٢] وهي تفيد معنى تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل الكل . وبهذا المعنى يمكن أن نفترض ، أن الدعوة إلى العولمة بهذا المعنى إذا صدرت من بلد أو جماعة فإنها تعني تعميم نمط من الأنماط التي تخص ذلك البلد أو تلك الجماعة وجعل يشمل العالم كله . وقد رأى الباحثون أن العولمة في صورتها الراهنة هي الدعوة إلى تنميط العالم بالنمط الغربي ، أو بعبارة أدق ، هي الدعوة إلى توسيع النموذج الأمريكي وفسح المجال له ليشمل العالم كله . لذا نجد هناك من يقرن بين العولمة وبين " الأمركة " ، بصفتها معنية بنشر الطابع الأمريكي وتعميمه ، ويربط البعض بين ظهور مصطلح " العولمة " وظهور ما عرف بالنظام العالمي الجديد ، الذي بدأت بذوره الأولى في منتصف الستينات من القرن العشرين ، ثم بدأت توجهاته تتضح في السبعينات ، وتسارعت خطاه في الثمانينات ، بحيث اتضحت خطوطه العامة وملامحه الرئيسية مع بداية التسعينات .

الأسباب والدواعي :ـ

المجتمع الإسلامي ، الذي أصبح بسبب ثورة المعلومات وتطور تقنيات الاتصال قرية صغيرة تتأثر بالأحداث التي تقع في أي دولة من دول العالم ، ومن المنطقي القول أن الغرب الذي يعاني من صعوبة المواجهة في الطرح في إزاء العرب والمسلمين بسبب تفوقه التقني والعسكري يرفض كليا أن يقترب من الفكر العربي الإسلامي ومناقشة أطروحاته وطبيعة أفكاره فبات يتصرف بحساسية شديدة إزاء مفكري الشرق ، وبالذات المفكرين المسلمين في تقبل

ثقافتهم لمعالجة الظواهر الدولية ، وبذلك تكون المجتمعات العربية والإسلامية في موقع الملتقى لتلك الثقافات ، والمنقطعة تمام عن علوم وأفكار المجتمعات الشرقية .

إن ما يطلق عليه اليوم بالتيار اليميني المسيحي المتطرف في الولايات المتحدة يشكل اليوم تيارا صهيونيا مسيحيا على الـ (٥٠) مليون مؤمن بأفكار هذا الخط الذي يعمل على تفريغ المجتمعات الإسلامية من نمط حياتها الإسلامية وذلك عبر ثلاث قنوات يتحرك فيها .

١. القوة العسكرية : والتي تتمتع بها الولايات المتحدة والتي تمنحها كقوة عظمى في العالم .

٢. القوة الاقتصادية : والتي تقوم على النمط الاقتصادي الرأسمالي الذي تسنده البنوك وصندوق النقد الدولي والشركات متعددة الجنسيات ، واقتصاديات الدول المساندة للاقتصاد الرأسمالي الأمريكي من الدول النامية .

٣. وسائل الاتصال والمعلوماتية من خلال الإعلام والأقمار الاصطناعية والفضائيات: إذ تعاني دولنا الإسلامية في عصر الاتصالات أكثر من أي وقت مضى لهذا النوع من الاختراق الثقافي لبيوتها ومؤسساتها وأفرادها.

هوية الفرد في ظل العولمة الثقافية :

إن الهوية الثقافية كيان يصير ، يتطور ، وليست معطى جاهزا ونهائيا . هي تصير وتتطور ، أما في اتجاه الانكماش وأما في اتجاه الانتشار ، وهي تغتني بتجارب أهلها ومعاناتهم ، انتصاراتهم وتطلعاتهم ، وأيضا باحتكاكها سلبا وإيجابا مع الهويات الثقافية الأخرى التي تدخل معها في تغاير من نوع ما ،

تتحرك الهوية الثقافية على ثلاثة دوائر متداخلة ذات مركز واحد .

فالفرد داخل الجماعة الواحدة ، قبيلة كانت أو طائفة أو جماعة مدنية (حزبا أو نقابة الخ ...) ، هو عبارة عن هوية متميزة ومستقلة . عبارة عن " أنا " ، لها " آخر " داخل الجماعة نفسها : " أنا " تضع نفسها في مركز الدائرة عندما تكون في مواجهة مع هذا النوع من " الآخر " .

والجماعات داخل الأمة ، هي كالأفراد داخل الجماعة ، لكل منها ما يميزها داخل الهوية الثقافية المشتركة ، ولكل منها " أنا " خاصة بها و " آخر " من خلاله وعبره تتعرف على نفسها بوصفها ليست إياه . والشيء نفسه يقال للأمة الواحدة إزاء الأمم الأخرى . غير أنها أكثر تجريدا ، وأوسع نطاقا ، وأكثر قابلية للتعدد والتنوع والاختلاف .

هناك إذن ثلاثة مستويات في الهوية الثقافية ، لشعب من الشعوب : الهوية الفردية ، والهوية الجماعية ، والهوية الوطنية (أو القومية) . والعلاقة بين هذه المستويات ليست قارة ولا ثابتة ، بل هي في مد وجزر دائمين ، يتغير مدى كل منها اتساعا وضيقا ، حسب الظروف وأنواع الصراع واللاصراع ، والتضامن واللاتضامن ، التي تحركها المصالح : المصالح الفردية والمصالح الجماعية والمصالح الوطنية والقومية .

وبعبارة أخرى إن العلاقة بين هذه المستويات الثلاثة تتحدد أساسا بنوع " الآخر " ، بموقعه وطموحاته : فإن كان داخليا ، ويقع في دائرة الجماعة ، فالهوية الفردية هي التي تفرض نفسها كـ " أنا " ، وإن كان يقع في دائرة الأمة فالهوية الجماعية (القبلية ، الطائفية ، الحزبية ... الخ) هي التي تحل محل الأنا الفردي . أما أن كان " الآخر " خارجيا ، أي يقع خارج الأمة (والدولة والوطن) فإن الهوية الوطنية – أو القومية – هي التي تملأ مجال الأنا ، " ويبدو

أن أحد أهم النتائج التي وردت إلينا من الانثربولوجيا هي أن الأفكار والآراء والوسائل الواردة من الخارج أشد تأثيرا على الحضارة من العوامل الداخلية"[٣] وهكذا تستبدل الحدود الطبيعية للشعوب والجماعات بحدود أخرى يمكن أن نطلق عليها حدود وهمية ، لذا أصبحت العولمة أداة لرسم هوية مغايرة للهوية العربية الأصلية ، مستخدمتا الاختراق الصحفي كوسيلة للسيطرة على الإدراك عن طريق الصورة السمعية البصرية التي تسعى إلى تسطيح الوعي ، وجعله يرتبط بما يجري على السطح من صور ومشاهد ذات طابع إعلامي إشهاري " وقد أدى نمو أدوات الاتصال السمعية والمرئية إلى تغييرات شاملة في الحياة الاجتماعية ولقد كان تأثيرها عميقا في نمو الاتصال اللغوي "[٤] . والهدف تكريس نوع معين من الاستهلاك لنوع معين من المعارف والسلع والبضائع معارف إشهارية تشكل في مجموعها ما يمكن أن نطلق عليه " ثقافة الاختراق " تتولى القيام بعملية تقشير للوعي الثقافي العربي ، واختراق الهوية الثقافية للأفراد والأقوام والأمم ، ثقافة جديدة تماما لم يشهد التاريخ من قبل لها مثيلا ثقافة إشهارية إعلامية سمعية وبصرية تصنع الذوق الاستهلاكي للفرد .

إن هذا الاختراق الثقافي ، محمل بإيديولوجيات معينة ، هي أيديولوجيا الانتشار الصحفي ، وهي تختلف عن الآيديولجيات المتصارعة ، كالرأسمالية والاشتراكية ، في كونها لا تقدم مشروعا للمستقبل ، لا تقدم نفسها كخصم لبديل آخر تسميه وتقاومه ، وإنما تعمل على اختراق الرغبة في البديل وشل وعي التغيير لدى الأفراد والجماعات ، ومع التطبيع ومع الهيمنة والاستسلام لعملية الاستتباع الحضاري يأتي فقدان الشعور بالانتماء لوطن أو أمة أو دولة، وبالتالي إفراغ الهوية الثقافية من كل محتوى . إن العولمة عالم اللادولة واللاوطن عالم الاتصالات المتطورة والتي يقابلها المستقبلين وهم المستهلكون

للمعلومات والحركات والسكنات التي تفرض عليهم . ليصبح وطنهم الجديد الفضاء المعلوماتي الذي تصنعه شبكات الاتصال ، الفضاء الذي يحتوي - يسيطر ويوجه - الاقتصاد والسياسة والثقافة .

دور المفكرين المسلمين في مواجهة تحديات العولمة :ـ

لم يكن الإسلام فكرا (عولميا) إنما فكرا عقائديا تحرريا عالميا قائما على حرية الفرد في الاعتقاد (لا إكراه في الدين) والاقتناع به كدين وحضارة ، فعالمية الإسلام لا تشبه العولمة الغربية القائمة على أهداف سياسية واقتصادية مستقبلية خطيرة على مجتمعاتنا الإسلامية مما حتم على المفكرين أن يخوضوا بثلاثة موضوعات رئيسة أجد من المفيد التصدي لها .

أولاً: أثر الرسالة الإسلامية في الحضارة الإنسانية، وتواصل المشاركة الإنسانية حضاريا. لما تحمله هذه الحضارة من نزعة في التطور والإبداع بسبب الإمكانات الهائلة والثروات المتعددة .

ثانياً : ظاهرة العولمة وأثرها في الثقافة بالمجتمعات العربية والإسلامية فعولمة الغرب الثقافية لا تعني التأثير المتبادل ، وإنما تعني فرض أنماط وسلوكيات على الشعوب الإسلامية لتفريغها من إرثها الثقافي والزج بها لتنسجم مع مخططات وأهداف الثقافة الجديدة ، فالانفتاح الثقافي والحضاري ليست حواراً ثقافياً حضارياً متبادلاً بين ثقافتين متكافئتين أو حضاريتين لهما قدر متساوٍ من العمق والأصالة .

ثالثاً : مرتكزات القوة الأمريكية المساندة " للكيان الصهيوني " ضد الشعب الفلسطيني ، وتحدي مشاعر المسلمين عامة ، وخصوصا بعد سقوط الاتحاد السوفيتي ، إذ غدّت الولايات المتحدة معايير تعاملها مع المنطقة الإسلامية بما ينسجم ومصالحها العليا في المنطقة .

أثر المفكرين المسلمين عالميا خارج إطار العولمة :-

نقصد بأثر الرسالة الإسلامية في الحضارة الإنسانية ما قدمه المفكرون المسلمون للحضارة الإنسانية عامة. فالحضارة نمط من أنماط المعيشة الإنسانية ، وأنماط المعيشة الإنسانية كثيرة جدا ، وكل هذه الأنماط تمثل حضارات لا يزال معظمها قائما إلى اليوم في شتى أقطار العالم نسميها (الشعوب المتمدنة) أو المتقدمة ، وكل حضارة من هذه الحضارات على اختلاف أنواعها وتعدد أشكالها تنطوي على وجوه كثيرة من النشاط الإنساني في الدين واللغة والعلم والفن والأدب ثم في السياسة والاقتصاد والتعليم وما إلى ذلك . وفي هذا النشاط يقول الدكتور عمر فروخ : قال لي أستاذي يوسف هل (١٨٧٥هـ - ١٩٥٠م) رحمه الله " أن لوثر لما وضع أسس الإصلاح الديني للنصرانية ، وما يعرف بالحركة البروتستانتية كان بلا ريب يضع أمامه نسخة من القرآن الكريم، إن القرآن الكريم كان قد نقل إلى اللاتينية في النصف الأول من القرن الثاني عشر للميلاد نقله روبرت أوف تشتز .. إن الإصلاح في الديانة المسيحية جاء في سنة (١٥٤٠) مستمدا من الإسلام[٥]. فإذا كان الإصلاح الديني في أوربا المسيحية مقدمة للحضارة الغربية وهو أثر من آثار الرسالة الإسلامية فكم يجب أن ندرك أثر الإسلام على جميع الأمم في وجوه الحياة كافة ، فمن المعلوم أن الحضارة الأوربية الحديثة سأمت التقوقع الكنسي بما تحمله من أفكار ونظريات ، فقامت كردة فعل لتصرفات الكنيسة وموقفها المعادي للعقل وللعلم التجريبي.

أما أسس الحضارة الأوربية في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي قامت مطلقا في مختلف العلوم على التراث العربي الإسلامي من خلال ثلاثة مصادر الأندلس والحروب التي نقلت التراث الإسلامي إلى أوربا وصقلية [٦].

ولا يختلف اثنان على أن الكوميديا الإلهية لدانتي أحد رواد النهضة مستلهمة من رسالة الغفران للشاعر أبي العلاء المعري ، وأبن بنيتو ميكافيلي[٧] في كتابه (الأمير) كان متأثرا تماما بأفكار وتراث عالم الاجتماع العربي عبد الرحمن بن خلدون[٨] .

وبعد مرور خمسة عشر قرنا من الزمان قدمت الحضارة الإسلامية وعبر فكرها الأصيل دروسا جمة من الكفاح والبناء والجهاد كان للمفكرين المسلمين الدور الأبرز في الثقافة العربية الإسلامية ، وهذا ما يتجلى في عظمة أهدافها وتعدد مواضيعها ودورها الفاعل في بناء وتطوير وازدهار الثقافة الإنسانية على أساس من النهج العقائدي السليم ، وتوجيه النشئ وجهة إنسانية يحدد لها أهدافها وغاياتها ويكون لها الدور البارز في حماية الإنسانية من التطرف والانحراف .

الغزو الثقافي الغربي والموقف الإسلامي :ـ

وتأسيسا لما سبق فإن هذا الأمر يقودنا إلى بيان الفرق الجوهري بين العالمية التي يدعو لها الإسلام ضمن إطار الحضارة الإنسانية لجميع الأمم والشعوب، والعولمة بإطارها الفكري والثقافي والاقتصادي ن فالعولمة ضمن إطارها الثقافي الغربي هي " عقبة التحول الرأسمالي العميق للإنسانية جمعاء في ظل هيمنة دول المركز وبقيادتها وتحت سيطرتها ، وفي ظل سيادة نظام عالمي للتبادل غير المتكافئ "[٩] لذا فإن العولمة كما يميل بعض المفكرين الإسلاميين إلى تعريفها بأنها " ظاهرة شاملة مركبة لها أشكالها المتعددة الاقتصادية والسياسية والثقافية ، غير أن هيمنة القطبية الأحادية الأمريكية على العلاقات الدولية قد جعلت منها ظاهرة عالمية مرتبطة بالتصورات الستراتيجية الكونية للولايات المتحدة الأمريكية " [١٠].

ويتضح من ذلك أن الغزو الثقافي يعد من أبرز الأساليب المتبعة من قبل

قوى العولمة الثقافية في صراعها مع الثقافة العربية الإسلامية . وهو غزو مبرمج ومخطط له وذو أهداف بعيدة المدى ، تقف وراءه مؤسسات إعلامية وسياسية وتجارية . هدفه إشعار العالم الإسلامي وبالتالي السيطرة عليه أي أن العصر هو العصر الأمريكي وهو عصر الكتل والمؤسسات والأنظمة والمناهج.

ولذا فإن تدفق المعلومات عبر تقنيات المعرفة (الفضائيات ، مواقع الانترنت، الإعلام المقروء والمسموع) يقصد منه بث مفاهيم جديدة في الوسط الإسلامي ، ومن ثم التوغل إلى منظومة القيم والمبادئ الأساسية للثقافة العربية والإسلامية والترويج لمفاهيم قوى عولمة الثقافة الغربية والتي تتركز على سحق ثقافة المجتمعات الإسلامية التي يقف أمامها المفكرون الإسلاميون بموقف الرافض لها . فالتيار الإسلامي باتجاهاته كافة يعتبر اليوم أكثر التيارات تشددا بشأن الهوية ، والثقافة بعمقها الديني لم تجذبه حتى الآن عولمة الثقافة .

ولا شك أن الاختراق الثقافي يمثل أحد المداخل المهمة التي تهدد الجانب الثقافي الإسلامي والعقائدي تحت طائلة الانفتاح والتعاطي مع مجتمعاتنا الإسلامية لاحتوائه وبالتالي الهيمنة عله عبر قنواته المتعددة من خلال النموذج الأمريكي الذي ينظر إلى هذه الثقافات على أنها (ثقافات نخبة أو صفوة ، وهي ثقافات مكبلة بالقيود ، هي ثقافات ذات توجهات دينية ، وهي ثقافات تستخدم لغة لا تفهمها غير فئة قليلة من الصفوة أو من رجال الدين ، ومن ثم فهي لا تلبي احتياجات الإنسان المعاصر الذي يبحث عنها في الثقافات الوافدة إليه أو الغازية لمجتمعه)[١١] .

ويقدم الدكتور الجابري وصفا لحالة الاختراق الفكري الذي مارسه دعاة العولمة بقوله : " أخذت تنتشر في الأوساط التكنوقراطية عندنا وفي الأوساط الصحفية التي تنقل عنهم مصطلحاتهم وأفكارهم فتكررها بوصفها تعبر عن أفكار جديدة حديثة نسمعهم يقولون مثلا هناك ثقافتان ، ثقافة الانفتاح

والاختلاف والديمقراطية وثقافة أخرى لا يجرءون على وصفها بالوصف الذي يرضي ميولهم ينسبونها إلى حقبة زمنية ماضية إلى الخمسينات والستينات " [١٢] وهنا يروج الدكتور الجابري لثقافة العولمة ويصف الثقافة العربية الإسلامية إلى حقبة زمنية مضت .

إذن السؤال الذي يدور حاليا هو : كيف يمكننا أن نواجه سلبيات العولمة والتصدي لمفاهيمها الخاطئة ؟ الجواب هو : لا بد من وجود بدائل تتجلى بعد تجاوز حالة الانحطاط الفكري والارتقاء بالعقلية الإسلامية ، وتنمية روح الأمل من خلال التذكير بعالمية الحضارة العربية عبر القرون الماضية ، ومن ثم الارتقاء إلى مستوى المشاركة بالتطور الإنساني الحضاري المعاصر ((فالعولمة لا تمضي من طريق سهل فالمجتمعات الإنسانية تملك منظومات من القيم والعقائد التي تحمي الشخصية وتحول دون ضياع هويتها ، وتؤمن حدا مناسبا من الخصوصية أي أن للعولمة مضادتها من القيم الثقافية ذات المضمون الروحي والإنساني)) [١٣] وبعكسه ستقع المجتمعات الإسلامية تحت مفهوم عولمة الثقافة بعد تطور وسائل الاتصال بقنواتها المتعددة . ونعني بذلك خلق وصياغة نموذج ثقافي عالمي عبر تعميم قيمه ونشر آراءه على العالم أجمع ، وبذلك يفقد النموذج الإسلامي أصالة المشاركة الفعلية ، وهذا الأمر يتطلب منا التمسك الشديد بالثقافة الإسلامية واستنفار إمكاناتها لما تحمله من قيم إنسانية أصيلة في جوهرها منذ فجر التاريخ حتى يومنا هذا .

لقد ترتب على ثورة المعلومات وتقنيات الإعلام وسعة العلوم والمعارف والثقافة إشاعة الثقافة الأمريكية والغربية بين الشعوب الإسلامية في محاولة تهدف إلى فرض القيم الأمريكية والنموذج الغربي على الشعوب كافة بوصفها نموذجا يمثل الكونية بأكملها بحيث يحل محل الحضارات في العالم ومنها الإسلامية ، ويشكل نوعا جديدا من الآيدولوجية يجري تداوله من

جميع الشعوب ويعد صالحا لها .

إن تأثير السياسة الأمريكية ودول الغرب تجلت من خلال مبالغتها في فرض سياسة العولمة بالقوة العسكرية أو التأثيرات الثقافية والسلوكية عبر الفضائيات ووسائل الإعلام المتخصصة في نشر الإباحية في المجتمعات العربية والإسلامية والذي سيقود حتما إلى ظهور موقفين في تلك المجتمعات أولهما ويمثل الخط المعتدل الذي يحاول المحافظة على الثقافة العربية الإسلامية من خلال اللجوء إلى التراث العربي الإسلامي والتذكير بماضي الأمة في عصورها الذهبية يوم كانت الحضارة العربية تصدر نتاجها الفكري والسياسي لحضارات العالم .

وثانيهما الخط المتطرف والرافض تماما لمحاسن العولمة وجوانبها المشرقة بوصفها شرا خطيرا ونتيجة للموقف الأخير تتولد أفكار تدعو إلى مقاومة ثقافة الغرب عموما وعبر وسائل متعددة كالعنف مثلا بعيدا عن منطق الحوار والتأثير المتبادل وبهذا فإن صراع العولمة مع ثقافات المجتمعات العربية الإسلامية ستقود حتما إلى التصادم مع المشروع الأمريكي الغربي ، في حين أن العديد من مفكري الإسلام يدعو إلى حوار الحضارات وليس صدام الحضارات* كما تقود مفاهيم العولمة .

ومما تقدم يظهر أننا نحن أمام تيارين متناقضين أحدهما يدعو إلى الاعتدال عبر الحفاظ على الهوية الثقافية الإسلامية ، والآخر يطالب بمقاومة العولمة والدفاع عن خصوصيتنا والحفاظ عليها .

ويقدم لنا الدكتور محمد عابد الجابري في الأطروحة العاشرة للحاجة إلى الدفاع عن الهوية الثقافية قبل اكتساب الأدوات اللازمة لدخول عصر العلم والثقافة بقوله : " نحن في حاجة إلى التحديث أي الانخراط في عصر العلم والثقافة كفاعلين مساهمين ، ولكننا في حاجة كذلك إلى مقاومة الاختراق

وحماية هويتنا القومية وخصوصيتنا الثقافية من الانحلال والتلاشي تحت تأثير موجات الغزو الذي يمارس علينا وعلى العالم أجمع بوسائل العلم والتقانة"[١٤].

في حين يرى البعض الآخر أن سبب الرفض وعدم قبول العولمة بإطارها الجديد قد يكون لعدم قيامها على أسس عقلية واضحة الأمر الذي يفقدها روح المجابهة بينها وبين الشريعة الإسلامية ، أو على أقل تقدير إمكان إجراء حوار متبادل لوجود قواسم مشتركة بين الطرفين ((إن بعض التيارات الإسلامية تشعر بالهلع غالبا حين يتعلق الأمر بالتفاعل مع الخارج والسبب أن دور البناء على العقل مفقود لديها . إن القناعة المبنية على الأسس العقلية لا يمكن أن تهزم في حالة الدخول في مواجهة فعلية مع الثقافة المعاصرة في المواقع التي تتحقق فيها المصادمة . والإنسان المعتز بحضارته ودينه وانتماءاته المذهبية لا يخشى الدخول في مواجهات حضارية مع العناصر المطروحة فعلا فالعولمة تفتح الباب فيما لو قمنا بترشيد الفكر الإسلامي وطرحه بما يتناسب مع الحالة المعاصرة ، وهو سيكون الفكر المنتصر والذي يتمكن من حسم المعركة الثقافية لصالحه))[١٥].

إذن فلا بد من مواجهة المستجدات التي اجتاحت بلادنا الإسلامية بأفق واسعة ورؤى واضحة تعتمد على تشخيص الأخطاء وتدعيم الإيجابيات بشكل يخدم أسسنا الدينية والمذهبية ، وهذا لا يتم إلا عن طريق استيعاب المرحلة الجديدة بكل ما فيها للخروج من دائرة التقوقع اللامسؤول الذي قادنا إلى هذه النتيجة عبر الاستغلال الأمثل للفرص المبينة على أسس عقلانية والتفكير على مستوى هموم عالمنا الإسلامي ، فإذا كان حراما فما الدليل ؟ وإذا كان حلالا أو جائزا فلم هذا الانزواء في دائرة ضيقة والذي يضر بمصالحنا ويقعدنا عن عوامل الاستجابة والتطور التي بات عالمنا اليوم بأمس الحاجة إليه

لبلوغ الرقي والتقدم على الأصعدة كافة .

لقد ازدادت الخيارات واتسعت المجالات وبات الأفق واسعا للاختبار ، فلا بد من نبذ التحجر والانغلاق الرافض للتعامل ، فالذهنية السابقة تمنع وتكفّر كل من يتعامل مع العولمة بشكل يخالف نزعة الإسلام واتجاهاته بما يحمله من ميل إلى التطور والتقدم والإبداع والابتكار وتنمية ما لدى الإسلام من مواهب وإمكانات من شأنها أن تزيد وتائر التطور في الحياة .

وفي ضوء ما تقدم أعتقد أن الصحيح هو تنظيم العلاقة بشكل يضمن للطرفين حقوقه وامتيازاته عن أساس الانفتاح المحدود وعن مختلف الأصعدة السياسية ، الفكرية ، وبشكل يحفظ لأمتنا مناعتها الثقافية والحضارية من التحلل ألقيمي والخلقي الذي يقدمه لنا الغرب من خلال وسائله الإعلامية الضخمة المتطورة .

الإعلام أحد أذرع العولمة :ـ

شكل الإعلام بكلا قنواته (الدعائية المسيسة ، والثقافية والترفيهية ، أحد أهم قنوات التبشير بظاهرة العولمة ، فإدخال النموذج الغربي في كل مفاصل الحياة شكل خطرا يهدد الشخصية الإسلامية ، دون مراعاة للمحاذير والتحفظات والخصوصيات التي تتمتع بها الأمم والشعوب مما يتنافى وروح الشريعة الإسلامية وثوابتها المعتمدة . فروح التفسح الأخلاقي والتفكك الأسري أصبح من السمات البارزة للمجتمعات العربية التي لاقت فيها ظاهرة العولمة مرتعا خصبا ، بعد أن فقدت مقومات المواجهة والرفض لكل ما هو غريب ووافد .

فعالمنا اليوم يشهد سلسلة من المتغيرات السريعة السياسية والاقتصادية والإعلامية التي تؤثر حتما في المقومات الفكرية والاجتماعية والعقائدية ،

وعالمنا الإسلامي في ضوء هذه المتغيرات والطروحات من دعوى (نهاية التاريخ) ، وأخرى تنظر باتجاه (صِدام الحضارات) وثالثة تدعي أن القرن الحادي والعشرين قرنا أمريكيا ، ورابعة تسعى من منظور صهيوني – أمريكي بحت لبناء ما يسمى بـ (شرق أوسط كبير) هدفا أساسيا من دون الحاجة إلى جهود واجتهاد ، فالمسألة باتت واضحة الأهداف والمعالم لاعتبارات عدة لعل في مقدمتها العمق الفكري العقائدي والديني لعالمنا الإسلامي ، التي انبثقت منه أسس الحضارة كما في حضارة وادي الرافدين ووادي النيل وبلاد فارس وبلاد الشام ، إلى جانب موقعها الجغرافي الاستراتيجي الذي يكاد يتوسط العالم ، ناهيك عما يمتلكه عالمنا الإسلامي من ثروات هائلة وإمكانات كبيرة جعلته محطة أنظار العالم .

من خلال ما تقدم يتضح أن عالمنا الإسلامي هدفا مشروعا حاضرا ومستقبلا في ذهن الغرب عموما والولايات المتحدة خصوصا ، ولتحقيق هذا الهدف شرع الأمريكان وحلفاؤهم من الغربيين بطرح مشروع " العولمة " مشروعا عصريا تسعى من خلاله إلى الاستحواذ على مقدرات العالم ولا سيما عالمنا الإسلامي ، ولتعزيز هذا المسعى شرعت بحملة إعلامية فكرية استخدمت كافة الأدوات وعبر قنواتها المتعددة وبأعلى الإمكانات المتوافرة من تكنولوجيا المعلومات إلى استخدام الفضائيات هدفها الأساس اختراق منظومتنا الإسلامية لاستقطاب النشئ الجديد من خلال برامجها التي م شأنها على المدى القريب سلخ المجتمع المسلم من أصالته الإسلامية ومبادئه وقيمه سبيلا للقضاء على العمق العقائدي وجذوره الفكرية انسجاما منهم على إسقاط الحواجز والهويات والثقافات على المدى البعيد .

ونتيجة لضعف الإعلام العربي وهشاشة تركيبة النظام السياسي العربي والإسلامي وطبيعة العلاقة التنافسية بين المسلمين والغرب برزت على السطح

قوة تأثير وسائل الإعلام الغربية في المجتمعات الإسلامية ، وفي مواجهة هذا التدفق الكثيف للأخبار والمعلومات عن ظاهرة العولمة من وجهة نظر غربية كان من الواجب على الدول العربية والإسلامية أن تضع إستراتيجية علمية للإعلام العربي الإسلامي .. للنظر في المستجدات والمتغيرات وإيجاد البدائل لهذه الظاهرة في حالة رفضها مطلقا من قبل المجتمعات الإسلامية كونها ثقافة بديلة للثقافة العربية الإسلامية [١٦].

إن الغزو الإعلامي الأمريكي المبرمج ذات الأهداف الواعدة والتي تمارسه المؤسسات الأمريكية جعل الشريحة الأكبر من الشباب في المجتمعات الإسلامية يتأثر بالثقافات الوافدة إليه عبر أجهزة الاتصال التي لعبت دورا مؤثرا في اختراق المنظومة الثقافية الإسلامية كما ((أن مشاغل الحياة وتعقيداتها ستدفع بالفرد في مجتمعاتنا إلى الميل نحو البرامج الترفيهية والتسلية أكثر منها نحو المعلومات العلمية النافعة .. التي أصبحت تشكل الحصة الأكبر فيما يبث من القنوات الفضائية الوافدة غذ يقدم من خلالها النموذج الأمريكي للثقافة لجعله النموذج العالمي الذي يتوجب على الآخرين تقليده وتبنيه)) . [١٧]

وفي مطلع التسعينات اتسع نطاق البحث التلفزيوني الدولي الفضائي وأصبح العالم بما فيه المجتمعات الإسلامية تحت تغطية عدد كبير من القنوات التلفزيونية والناطقة بلغات شتى،وتعد هذه الفضائيات واحداً من العوامل التي تحد في رجوع نسبة عالية من الشباب في المجتمعات العربية والإسلامية إلى الكتب ذات المضمون الفكري العميق [١٨].

إن انعدام الثقافة السياسية وغياب الديمقراطية في مجتمعاتنا العربية الإسلامية بسبب شخصنه السلطة وانعدام دور المؤسسات ووقوع المجتمعات تحت خط الفقر الدولي نتيجة السياسات الاقتصادية الفاشلة لتلك الحكومات وتبعيتها لهيمنة الدول الكبرى في العالم ،قاد إلى الجهل في التعامل مع النظام

العالمي الجديد ،بل أكثر من ذلك فقد تسبب الاضطهاد بكل أنواعه إلى غياب الرأي العام في مجتمعاتنا الإسلامية ((فالرأي العام في أي بلد من البلدان عوامل تكوينية منبعثة من تاريخه وتقاليده وظروفه البيئية وتراثه وأوضاعه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ومن تجاربه الذاتية وما يصله من تجارب البلدان الأخرى وهذه العوامل كثيرة ومتشابكة كما إنها تتفاعل مع بعضها تفاعلاً ديناميكيا لتكوين موقف جماهيري عام من القضايا الداخلية والدولية في تلك المجتمعات))[١٩].

وبسبب الظروف السابقة بقي الرأي العام بعيداً عن ساحة التفاعل الايجابي التي تحتمه طبيعية المستجدات العالمية المتسارعة ،فقد بقي الرأي الإسلامي مشتتا أمام فهم ايجابيات العولمة وسلبياتها ،كما إننا نعيش عصر تلقي المعلومات من الغرب أضف إلى ذلك فإننا وجدنا المفكر الإسلامي غائب تماماً عن التأثير في مجتمعاته للتنبيه إلى مخاطر العولمة أو الإشارة بايجابياتها وفق ما تتقبله المجتمعات العربية والإسلامية وترفضه [٢٠]. كما أن الغرب جعل من السيطرة على وسائل الإعلام سلاحاً جديداً في ترسانته لمهاجمة المجتمعات العربية والإسلامية ، وبات المواطن في تلك المجتمعات لا يفرق بين ثقافة الإرهاب وثقافة الجهاد المطلوب للحفاظ على كياناتها الاجتماعية والدينية ((ومن هنا تزايد حرص الولايات المتحدة الأمريكية على بث أفكار الرعب عن الإسلام التي تقدم على انه خطر يهدد مصالحها والسلام العالمي عموماً، وكذلك محاولة ربط الدين الإسلامي بالتطرف والإرهاب والقتل والتخريب ، وتصوير طبيعة عدوانية الفرد المسلم ..ناهيك عن تلك النظرة التي تحمل تجاهلاً للحقائق الموضوعية بتجنيها على طبيعة نظام الحكم في الإسلام وعده أنموذجا صرفاً لتمركز السلطة وقمع الرأي الآخر)) [٢١].

ولكي ندرك أن الإعلام أهم اذرع ظاهرة العولمة لإنجاح عولمة الثقافة في

المجتمعات العربية والإسلامية لابد من أن نشير إلى أن العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين شهدت تطورات تقنية كبيرة في مجال تبادل المعلومات ووسائل الاتصال فمنذ عام ١٩٦٨ أنتج العالم من المعلومات ما يعادل إنتاج (٥٠٠ سنة) سابقة، كما ينتج اليوم أكثر من (٢٠) مليون كلمة يومياً تستغرق قراءتها شهراً ونصف وان نسخة واحدة من عدد صحيفة ((نيويورك تايمز)) تحتوي على معلومات يمكن أن يكتبها أوربي في القرن السابع عشر طيلة حياته[٢٢] .

إن مواجهة العولمة لا يعني التقوقع والانزواء في دائرة ضيقة ،بل يتطلب منا وضع آلية للعمل الجاد عبر إستراتيجية علمية دقيقة تستوعب الإحداث والمتغيرات الجديدة على أسس من الحوار الموضوعي لكل ما هو مفيد ونافع ، وطرح كل ما هو ضار ومناف للعقل والدين ، فلا غرو أن نسعى نحن الشعوب الإسلامية إلى إيجاد آليات متكاملة لمقاومة هذا الزحف الخطير عبر إعداد برامج وطرق مخاطبة تستطيع عبر تضافر الجهود والطاقات أن تنافس الإعلام الغربي بكل قنواته وتسعى إلى استقطاب النشئ الجديد لتحصينه من مغريات الإعلام الفضائي المشحون بالعنف والجنس الذي راح يغزو ساعات البث التلفزيوني الأمر الذي يكشف عن الدور المتعاظم لحالة الشذوذ الغربي في الوسط الإسلامي من خلال دعوته للانفتاح والتعاطي مع المستجدات على وفق الموضة والصراعات الأمريكية والغربية .

وفي ضوء المخاطر السابقة فان المسؤولية الإسلامية لمواجهة مخاطر العولمة تكمن من خلال بلورة إستراتيجية إسلامية تستند إلى جملة من المقومات تأخذ صيغ وأشكال متعددة لعل من أهمها :

١- فتح فضائيات خاصة تسعى لطرح قضايا الأمة العربية والإسلامية بأساليب حديثة لا تثير الكل والملل ،تعتمد الموضوعية والحقائق في طرح

موضوعاتها.

٢- إعداد برامج وثائقية وثقافية تناقش أموراً تتعلق بالعلاقات التاريخية للإسلام مع الغرب ، وبيان عوامل الطرح وأسباب الصدام بصورة علمية دقيقة وموجزة .

٣- السعي لإشراك النشئ الجديد والشباب عن طريق الاتصال أو الحضور المباشر إلى برامج القنوات للمشاركة في الحوار والنقاش البناء ،وقوعا عند هواجسهم وأطروحاتهم لا القفز عليها ،وغض الطرف عنها ،ومن ثم يتسنى لنا من بناء شخصية سليمة من دسائس الإعلام المغرض.

٤- إعداد برامج دينية تعرض قضايا الدين والعقائد بصورة شفافة وبلغة عصرية يفهمها النشئ الجديد والشباب بما يتوافق مع تطلعاتهم الإسلامية

٥- اختيار نخبة من المختصين من أهل الدراية والمعرفة والأكاديميين لإجراء بحوث تخصصية حول (حوار الحضارات) من خلال الخطاب الإسلامي المعاصر الذي يعتمد على البرهان العلمي في أطروحاته.

٦- إرسال إعلامي ومعدي البرامج الفضائية الإسلامية إلى الخارج للاطلاع على ما يجري في المؤسسات الإعلامية ،حتى وان كانت في الغرب ،فالغاية معرفة تقنية العمل الإعلامي وليس الجمود على الأساليب القديمة المستهلكة.

هذه من أهم المقومات الأساسية التي لا يمكن إغفالها في أي عمل إسلامي لمواجهة الإعلام الغربي المتطور والمتنامي في وسائله وطرق معالجته للأحداث والمتغيرات التي يشهدها عالمنا المعاصر.

هوامش البحث

(١) ياس خضير البياتي : الإعلام الدولي والعربي ، بغداد ، جامعة بغداد ، ١١٩٣ ، ص ٦٣ .

(٢) مايكل كرونين : الترجمة والعولمة ،ترجمة : محمود الهاشمي ، (قطر : دار الكتب القطرية ، ٢٠١٠) ، ص ٢٨ .

(٣) غوران هدبرو : تر : محمد ناجي الجوهر ، (بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٩٩١) ، ص٤٠ .

(٤) محمد حسن عبد العزيز : لغة الصحافة المعاصرة ، (بيروت : المنتدى العربي للثقافة والعلوم ، بلا ت) ، ص ٩ .

(٥) د. عمر فروخ : أثر الرسالة الإسلامية في الحضارة الإنسانية / مجلة المؤرخ العربي / ع ١٦ / بغداد / ١٩٨١ / ص٩.

(٦) (ظ) جرجيس فتح الله : تراث الإسلام / بيروت / ١٩٧٨٩ / ط ٣ / دار الطليعة / ص ١٧٣ .

(٧) الميكافيلية : نسبة إلى ميكافيلي رجل الدولة الإيطالي ، وهو مذهب سياسي يمثل النظرة القائلة بأن السياسة لا علاقة بالأخلاق هذه المنطلقات أشار إليها ابن خلدون في كتابه العبر وتاريخ العرب والبربر تاريخ ابن خلدون / بيروت / ١٩٧١ / مؤسسة الأعلمي .

(٨) م . ن .

(٩) (ظ) : د. صادق جلال الفطم : ماهية العولمة / مجلة الطريق / ع ٤ تموز / آب ١٩٩٧ / ص ٣٤ .

(١٠) د. حسين علوان حسين : ظاهرة العولمة وأثرها في الثقافة العربية من بحوث مركز الدراسات الدولية / جامعة بغداد / ١٩٩٩.

(١١) د. عبد الجليل كاظم الوالي : العولمة والثقافة / مجلة المستقبل العربي / ع ٢٧٥ / ٢٠٠٢ / مركز دراسات الوحدة العربية / ص٦٣.

(١٢) الجابري : العولمة والهوية الثقافية الإسلامية / مجلة المستقبل العربي / ع ٢٢٨ / ١٩٩٨ / ص١٧.

(١٣) د. ناهدة عبد الكريم حافظ : دور القيم في مواجهة مخاطر العولمة / مجلة الأجيال / ع ١ / ٢٠٠٢ / ص٨٦.

(❖) هذه الأطروحة تتحدث عن المستقبل وتنذر بخطر المواجهة والحروب وتدعو إلى صرامة إلى أخذ الحيطة والاستعداد أو للدفاع عن النموذج الحضاري الأمريكي وعن المصالح التي يقوم عليها ، وبالتالي تخصيص ما يلزم من الأموال لذلك . (ظ) محمد عابد الجابري : قضايا في الفكر المعاصر/ مركز دراسات الوحدة العربية/ بيروت/١٩٩٧/ط ١/ ص ٨٤.

(١٤) العرب والعولمة / بحوث الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية / ط ١ / ١٩٩٨ / بيروت / ص ٣٠٧ .

(١٥) حسن بحر العلوم : العولمة بين التطورات الإسلامية والغربية / معهد الدراسة العربية والإسلامية – لندن / ط ٢ / ٢٠٠٣ / ص ١٤٩ .

(١٦) د. كاظم مسلم العامري : بحث من إصدارات مركز دراسات الكوفة / جامعة الكوفة / ٢٠٠١ / ص٣.

(١٧) كنعان خورشيد عبد الوهاب : عولمة الثقافة / المخاطر وكيفية المواجهة / دراسة اجتماعية / مجلة بيت الحكمة / ع ٦ / بغداد / السنة الثانية / ص٥.

(١٨) د.هادي نعمان الهيتي: التلفيزيون الدولي وشيوع ثقافة الصورة في ثقافة الشباب العربي /بحث منشور في مجلة آفاق عربية /بغداد /كانون الثاني /١٩٩٧/ص٢١-٢٢.

(١٩) السيد عليوة :الرأي العام وأجهزة الإعلام في الوطن العربي /القاهرة /١٩٧٨/ص١٧

(٢٠) السيد عليوة:مصدر سابق /ص١٥.

(٢١) (ظ): قيس هويدي /ثورة الاتصال بين النعمة والنقمة/المجلة/العدد ٩٢٨في ١٩٩٧/١١/٢٩/ ص٢٥.

(٢٢) مجلة الأجيال :تصدرها نقابة المعلمين /العدد الأول /نيسان ٢٠٠٢/ص ١٥٢.